

الفصل الرابع

ظاهرة الإقلاع الجماعي عن شرب الخمر في المدينة
المنورة من منظور نفسي

ظاهرة الإقلاع الجماعي عن شرب الخمر

في المدينة المنورة من منظور نفسي

كلّما تفكّر الإنسان في ظاهرة الامتناع الجماعي عن تعاطي الخمر في المدينة المنورة كان أميل إلى إعذار أولئك الذين يعتبرون تلك الظاهرة برمتها إحدى المعجزات التي تحققت بالإسلام، إذ كيف استطاع عرب الصحراء في القرن السابع (الميلادي) أن يُحدّثوا مثل هذا التغيير في الناس في حين أن أي مستشفى حديث للعلاج النفسي إذا استطاع أن يعالج حفنةً من المدمنين أو تدريهم على ما يسمى "بالشرب الاجتماعي" يعتبر ذلك نجاحاً كبيراً، فلم يكن لدى أولئك العرب علم بتليّف الكبد وغيره من الآثار المدمرة التي تضر بالجسم من جرّاء تناول الكحول والإدمان عليه، ولم يكن لديهم كذلك وحدات لإزالة التسمم الكحولي أو مراكز للعلاج السلوكي، ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن عقار الكلوربرومازين!

كيف استطاع الإيمان غرس هذه العزيمة الحديدية في نفوس عرب المدينة المنورة حتى بادر المدمن منهم على الكحول وهو في نشوة سكره أن يصدق ما تبقى منه في فمه؟ بل ويتم هذا التغيير الجذري بسبب آية تتلى عليه! إنّ هذا الأمر لم تشهده البشرية قديماً ولا حديثاً، ولعلّ المعجزة الأكثر عجباً تتمثل في أن هذا الامتناع الجماعي عن الخمر الذي تمّ من قبل آلاف المسلمين لم يبقَ منه إلا انتكاسات نادرة.

وتبدو هذه النتائج مدهشة حقاً، إذا نظرنا إلى فشل أمريكا في القرن العشرين في تنفيذها لقوانين الحظر المشهورة وعلى الرغم من كل الجهود الحديثة التي بذلت في سبيل إنجاح هذه الحملة⁽¹⁾.

وسوف أركز في هذا الفصل على وضع تصوّر نفسي للعوامل الروحية والاجتماعية التي تضافرت في سبيل تحقيق هذا التغيير البارز، محاولاً ربط هذه التحليلات بالنظريات والتطبيقات الحديثة في العلوم الإنسانية والعلاج النفسي، ثم أجتهد في استخلاص اقتراحات قد تعين في حل بعض المشكلات المعاصرة الناجمة عن الاعتماد على الكحوليات. وبطبيعة الحال فإنّ هذه المقترحات تمّ الدول الإسلامية بشكل خاص.

وعندما نهج هذا النهج السيكولوجي في تفسير ظواهر اجتماعية معقّدة لا نتجاهل بالطبع الفرق الكبير بين مفاهيم علم النفس الفردي وعلم الاجتماع والحضارة. فربما كانت الجماعة في بعض صورها أكثر من مجموع أفرادها. لكننا وجدنا في هذا الأسلوب تسهياً وتوضيحاً مفيداً للظواهر الاجتماعية والحضارية المعقّدة التي قد يصعب فهمها على القارئ العادي.

كذلك يجب علينا قبل البدء في هذا التحليل النفسي أن نؤكد أنّ محاولاتنا لتحليل هذه الظاهرة الإسلامية العظيمة من خلال الدراسات والنظريات والممارسات الاجتماعية والنفسية الحديثة، لا يعني بحال من الأحوال إمكانية الإحاطة بها. فالدراسات الحديثة تقوم على تصورات

(1) R, Mc Carthy and E. Doglass, Alcohol and Social Responsibility, N.Y. Yale Plan Clinic, 1949.

مادية للإنسان ككائن اجتماعي. أما التغير النفسي والاجتماعي والروحي الإسلامي فقد اكتمل بتوجيه ووحى إلهيين، ولم يحدث لظروف أرضية مادية بحته: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63] أما النظريات الاجتماعية والنفسية الحديثة فلا تضع هذا الفيض الرباني في حسابها، فأكثر واضعيها.. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7].

لذلك، فقد أوغل في الخطأ من اعتقد وكتب من الدارسين المسلمين المُحدثين بأن الدين مجرد ظاهرة اجتماعية يمكنهم دراستها من خلال نظريات "دور كام" وغيره من علماء الغرب وباحثيه. وإن مثل هؤلاء كمثل الذي يحاول التعرف على خصائص كوكب أو نجم بعيد بتلسكوب مقلوب!

لكن هذه العلوم الاجتماعية والنفسية والحضارية الحديثة، رغم محدوديتها تؤكد على جوانب الإعجاز في التغيير الاجتماعي الإسلامي. ولنبدأ دراسة الإقلاع الجماعي عن شرب الخمر بمعجزة التحريم التدريجي لتؤكد هذا الزعم.

أ- التحريم التدريجي للخمر من منظور الكفّ التبادلي الحضاري

على الرغم من أن الاستجابة الجماعية لأمر القرآن الكريم كانت ظاهرة تبعث على الدهشة والاستغراب، فإننا إذا ما استعرضنا ما سبق تلك المرحلة النهائية من خطوات فإن ذلك سيكشف لنا مدى منطقية هذه الاستجابة الباهرة حيث أتت في إطار خطة محكمة استغرق تنفيذها

عدة سنوات، فمرور عملية التحريم بثلاث أو أربع مراحل كلها تدريجي تؤكد للدارس الحديث أن هذا الأمر لم يكن ليخطط بهذه الدقة وفي تلك الفترة من تاريخ البشرية إلا من لدن حكيم خبير يعلم دقائق طبيعة الإنسان الذي أحسن خلقه. فهذه الخطة المحكمة أشبه ما تكون بالعلاج السلوكي وبشكل خاص بذلك الأسلوب المعروف بالتحصين التدريجي Systematic desensitization الذي لم يتم تطويره في مجال علم النفس العلاجي إلا في الخمسينيات من هذا القرن.

ويعتمد التحصين التدريجي على تدريب المريض النفسي وتعويده على المواقف التي تسبب له القلق والتوتر بشكل تدريجي منظم في نفس الوقت الذي تستثار فيه استجابات مضادة للقلق والتوتر، أي تلك التي تأتيه بالهدوء والطمأنينة النفسية. فإذا كان المريض يشكو مثلاً من الخوف المرضي من المواقف الاجتماعية Social Phobia فإنه يقوم بمساعدة الطبيب النفسي المعالج بوضع قائمة "هرمية" متدرجة من المثيرات أو المواقف الاجتماعية Hierarchy على نحو دقيق، تبدأ بالمواقف الاجتماعية البسيطة التي لا تولد لديه إلا خوفاً بسيطاً وقلقاً محتملاً، مثل الحديث مع الأطفال أو إلى من يقلون عنه كثيراً في مكانتهم الاجتماعية، وقد ينهي هذا التنظيم الهرمي بمشاهد تثير فيه الخوف والفرع الشديدين كإلقاء خطبة في جمع كبير من مستمعين قادرين على توجيه النقد العنيف والسخرية منه.

يطلب من المريض النفسي في أول الأمر أن يتصور أقل المواقف سهولة واستثارة للخوف وهو في حالة استرخاء نفسي تام بفعل العقاقير أو

التنويم الإيحائي "المغناطيس" أو الاسترخاء العضلي، ويطلب منه إعادة تحيّل هذا الموقف حتى يتخلّص بهذه الطريقة من ارتباط القلق والخوف الذي يعانیه بالنسبة لهذا الموقف البسيط وينشأ ارتباطٌ جديد بينه وبين حالة الهدوء النفسي. فإذا اكتسب الإنسان الثقة في نفسه إزاء هذه المهام الأكثر سهولة، طُلب منه أن يطبقها عملياً في مواقف الحياة الحقيقية، ثم ينتقل بعد ذلك بالتدريج إلى مواقف متدرجة أكثر صعوبة، وحين يتم العلاج، تزداد ثقة المريض بنفسه حتى في المواقف الاجتماعية الصعبة التي كان من قبل عاجزاً عن مواجهتها.

في مقال⁽²⁾ كتبه عن العادات والتقاليد السودانية وصلتها بالاضطرابات النفسية بيّن كيف يمكن الربط بين تطبيق "التحصين التدريجي" في تغيير عادة نفسية مرضية لأحد العصائين في عيادة نفسية، وبين تغيير عادات وسلوكيات جماعية في حضارة بأكملها. وقد أطلقت على عملية إبطال العادات الجماعية هذه اسم "الكف التبادلي الحضاري" Cultural Reciprocal inhibition. فالناس مثلهم في ذلك مثل المريض النفسي، يتعلقون بشكل جماعي بعادات ونماذج حضارية لارتباطها بالعواطف والتقاليد القومية السائدة. فمثل تلك العادات قد يكون مألها الفناء في النهاية، ليس لأن الزمن في حد ذاته لديه تلك القدرة على الإفناء، ولكن لأنّ شكلاً من أشكال الكفّ عن طريق تبادل الحضارات سوف يحدث.

(2) M. Badri, «Customs, Traditions and Psychopathology: A Study on Arab Sudanese Culture», Sudan Medical Journal, Vol. 10, No. 3, 1972.

وأعتقد أن مفهوم "الكف التبادلي الحضاري" هذا يعطينا عمقاً وتفسيراً نفسياً لعامل الانتشار الحضاري Cultural diffusion الذي يعتبره الاجتماعيون من أهم عوامل التغيير الاجتماعي. ويمكن ملاحظة آثاره جلية عندما تحدث مواجهة بين ثقافتين أو حضارتين.

ونستطيع أن نشاهد أثر "الكف التبادلي الحضاري" بوضوح في التغيير الإيديولوجي والاتجاهي الذي تحدثه دولة غربية ذات حضارة تكنولوجية حديثة عالية على حضارة إفريقية تقليدية، فرغم أن الحضارة التقليدية قد ترفض في البداية قبول العناصر الإيديولوجية والاتجاهية تلك الحضارة المتقدمة، إلا أنها سوف تقبل تكنولوجيتها. فبينما هي منتشية بسحر تعقيدات الحضارة المادية التكنولوجية الحديثة- والتي تجعلها كالمريض المنوم في استرخاء- فإنها تتجرّع جرعات تزداد بالتدرّج من قيم هذه الحضارة الجديدة واتجاهاتها حتى تجرد نفسها وقد قبلت في النهاية إيديولوجيات رفضها الآباء وماتوا في سبيل مناهضتها.

فتبدأ الدولة المهزومة عادة بقبول العناصر التكنولوجية لأن فيها إمتاعاً وتسهيلاً للحياة وهي بذلك تأتي بالاستجابات الضرورية لتحديد التناقض الإيديولوجي والفكري بين الحضارتين، فتكون هناك فجوة بين التقبل المادي والإيديولوجي تنحسر بالتدرّج مع مرور الزمن. وربما يفسّر لنا ذلك من الناحية النفسية نظرية Ogburn الاجتماعية المعروفة بالفجوة الحضارية Cultural lag.

على أننا نؤكد أنه رغم أهمية التكنولوجيا والجوانب الحضارية المادية في التغيير الاجتماعي، إلا أن أيّ عناصر أخرى روحية كانت أو

إيديولوجية تستطيع أن تأتي بالتغيير الحضاري وربما بطريقة أسرع إن هي وجدت القبول من الجماعة المعنية واستطاعت أن تتغلب أو تُحَيِّد الدوافع المضادة لهذا التغيير الاتجاهي لدى الجماعة.

وهكذا لا بد من توفر شرطين رئيسيين لكي يتمّ بهما التغيير الاجتماعي في انسياب وبصورة مستمرة في المجتمع. أولهما يكمن في ضرورة وجود ردّ فعل اجتماعي نفسي لتحديد أو التخفيف من حدة التوتّر الناتج عن مقاومة تغيير الأطر الثقافية المعنية، وثانيهما أن يتم التغيير المطلوب تدريجياً.

وفي اعتقادي أنّ ذلك يضيف بُعداً أعمق للنظريات الاجتماعية التي تقوم على مبدأ "الإقناع" Persuasion ومبدأ "الخوافز بالثواب والعقاب Incentive Manipulation التي وُضعت لتفسير ظاهرة الانصياع الاجتماعي Social Compliance.

لقد كان منهج الإسلام في علاج مشكلة الخمر منهجاً طويل المدى - بمائته هذا المنهج - وبدأت الخطوات التدريجية الهرمية بتمهيد الطريق - في بساطة وليونة - للتغيرات الخطيرة المقبلة.

فقد نزلت أول آية تشير إلى السكر في وقت متأخر بمكة قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فلم تمسّ جوانب المشكلة إلا مساً خفيفاً.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:67].

والآية تتحدث عن السكر باعتباره مخالفاً للرزق الحسن، فحسب بعض المسلمين الذين أوتوا من رهافة الحس مثلما أعطي عمر بن الخطاب⁽³⁾ أن تلك الآية تكفي لإثارة الشكوك حول تعاطي الخمر. وكان عمر نفسه معروفاً بكثرة معاقرة الخمر وما كان له في أثناء الجاهلية عند سكره من حوادث تتسم بالعدوان والاندفاع ولربما فسّر ذلك لنا حساسيته الشديدة لمسائرها. وسأل بعض المسلمين ذوي البصيرة النبي ﷺ عن مدى الخير الذي يرجى من الاستمرار في تعاطي الخمر، ولا بد أن عدداً منهم كان قد بدأ في خفض القدر الذي كان يشربه من الخمر أو حاول الامتناع عن شربها على الرغم من أن ذلك لم يكن بعداً من الأمور المحرمة في الدين.

كانت تلك هي إذن المرحلة التمهيديّة التي نَبّهت المسلمين إلى اعتبار الخمر رزقاً غير حسن، ثم بدأت المرحلة الأولى الحقيقية في المنع فعالجت الموضوع بطريقة مباشرة ولكنها تتسم بالحذر والحيطّة، فنزل الوحي في المدينة ردّاً على تساؤلات المسلمين تلك عن الخمر والميسر.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

وهذه الآية تؤيد بوضوح أولئك الذين استمدّوا من تقواهم وورعهم قوة بصيرة وشفافية جعلتهم يحسّون بأنّ في الخمر إثماً كبيراً، حتى قبل أن

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد 3، ص 33، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة،

بيروت 1967.

يتمّ إبلاغهم بذلك. وعلى كل حال، فلما لم تحرّم هذه الآية تعاطي الخمر استمرّت الأثرية الغالبة من المسلمين في شربها ولا سيما في الصباح (الصباح) وفي وقت العصر أو المساء (الغيبوق). وفق ما جرت العادة به، ولكن حدث ما يمكن للمرء أن يتوقّعه إذ ازداد عدد المسلمين الذين شرّعوا في تقليل استهلاكهم اليومي، بينما كان الذين يشعرون بالإثم من جراء شربها وقلة جدواها أكثر من هؤلاء بكثير.

ولا شكّ أنّ قول الحق عزّ وجلّ أنّ في الخمر إثماً كبيراً قد أثار انتباه المؤمنين إلى مساوئها ووضع أضرارها تحت المجهر، فالعرب في جاهليتهم كانوا يعرفون بعض أضرار الخمر وبعض أعراض الإدمان الخطيرة، فنجد في شعرهم الجاهلي ما يؤكد هذه الحقائق، فقد قيل أنّ قيس بن عاصم المنقري سكر يوماً فغمز ابنته وغازلها، فلما أفاق من سكره وعلم بما فعله حرّم على نفسه الخمر وذكر مضارّها في شعره قائلاً:

رأيتُ الخمرَ جاحمةً وفيها	خصالٌ تُفسدُ الرجلَ الحليماً
فلا واللهُ أشرفُها حياتي	ولا أسقي بها أبداً سقيماً
فإنّ الخمرَ تفضحُ شاربيها	وتجشمهم بها أمراً عظيماً

ولا شكّ أنّ تحرّمه هذا للخمر على نفسه في جاهليته يدلّ على سلامة فطرته وصدقه مع نفسه، لذلك لم يكن من المستغرب أن يفد بعد ذلك على النبي في وفد بني تميم فيعتنق الإسلام ويخلص لربّه حتى قال عنه رسول الله ﷺ «هذا سيّد الوّبر». واستعمله ﷺ على صدقات قومه. (4) أما

(4) معجم الشعراء للمرزباني: تحقيق عبدالستار أحمد فراج: دار إحياء الكتب العربية: القاهرة

طرفة بن العبد فإنه يتحدث عن تأثير الإدمان على الجانب الاجتماعي والاقتصادي في حياة المدمن، ويقول بأنه أنفق كل ما يملك على لذاته وعلى الإسراف في شرب الخمر إلى أن وصل به الحال إلى درجة جعلت قومه يتجنبونه تجنب الصحيح للأجرب خوفاً من العدوى. ويصف نفسه بعد إدمانه الخمر وفقره بالبعير "المُعبد" أي البعير الأجرب الذي طلي بالقطران فيقول⁽⁵⁾:

وما زال تشرابي الخمرَ ولذني وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي
إلى أن تحامتي العشيرة كلُّها وأفردتُ إفرادَ البعيرِ المُعبدِ

ونجد الأعشى في بعض قصائد يتحدث بدقة فائقة عن أعراض الإدمان والاعتماد على الخمر من هذه الأعراض التي وصفها، أن المدمن يجد نفسه قلماً مرتعداً مرتعشاً في الصباح الباكر، ونحن نعرف اليوم أن هذا الارتعاش يحدث بسبب انخفاض نسبة الكحول في دم المدمن أثناء ساعات الليل الطويلة، لذلك فإنَّ الطبَّ النفسي الحديث قد وصل إلى أنه من أهم أعراض الإدمان احتساء المعتمد للكحول في الصباح الباكر، وحرصه ليلاً على إخفاء كمية كافية منها ليحتسيها صباحاً على الريق، ويزداد القلق والتوتر والارتجاف كلما تأخر في تناول خمرة صباحاً، مما يضطره إلى دفع كلِّ غال ليحصل على الكحول، ونجد مثل هذا المدمن يحتسي شرابه بشراهة ولهفة ليعيد لنفسه أنزاتها.

نجد الأعشى يعرض علينا بأسلوب قصصي دقيق رائع ما كان من أمر ذلك الفتى الذي طرق عليه بابه سحراً قبل أن يسفر الصباح، يطلب منه

(5) ديوان طرفة بن العبد: مصدر سابق: ص 45-49.

الصحة في شرب الخمر، فذهبا سوياً في ذلك السكون العميق الذي لم يهتك حجه صياحُ ديك ولم تدنسه عيون الحساد، ولا شك أن الأعشى وزميله كانا في حالة قلق متوترة لا يشفيها إلا الاحتساء السريع لخم مستوردة معتقة، وإلا لما تركا فراشهما الوثير في تلك الساعة المبكرة.

فها هما يصلان إلى بيت الخمار فيجدان أعجمياً أزرق العينين (أزيرق) يقف وكأنه حارس يمنع الناس عن خمرة المختار من أحسن الثمار وكأنها كنز ثمين، ونجد الأعشى يستعجل اختيار خابية ضخمة سوداء ويشير إلى الخمار قائلاً: "هذه، هاها، وخذ ما شئت"، فهو في حالة نفسية لا يذهبها إلا الشراب السريع صباحاً، لكن الخمار يتلصقاً لمعرفته بشدة حرصه على هذه الخمر وعلى الشراب السريع، ويرفض ما عرضه عليه من ناقة بيضاء (بأدماء في حبل مقتادها) ويطلب الزيادة.

فيقول الأعشى للخادم أعطه ما يريد من مال، لكن الخمار يريد أن يتأكد من صحة الدراهم وعددها مستخدماً في ذلك سراجاً يضيء به ظلمة السحر فيزيد توثر الأعشى على ما كان عليه من قلق ويصيح به قائلاً: "دراهمنا كلها جيدة فلا تجسنا بتنقادها"، أي لا تتأخر في التعرف على جودتها وعدتها، ويصف بعد ذلك كيف تسربت نشوة الخمر إلى المفاصل حتى أرعدت أولاً ثم استسلمت بعد ذلك للذتها واسترخائها وتخديرها فسكنت هامدة: "تسكننا بعد إرعادها"، وشرباً كل ما في الخابية، يسقيهم الخمارُ بكف تخضب بلون الخمر الأحمر. لكنهم لم يفقدوا رشدهم ولم ينفدوا عقولهم وإن نفد الخمر "هم النفدين شرابهم قبل إنفادها".

لكنهم ما إن ركبوا خيولهم عائدين حتى غشيتهم النشوة وظهر عليهم أثر الشرب بعد ذلك القصد والاعتدال: "فرحنا تنعمنا نشوة تجود بنا بعد إقصاها".

وإليك أبيات الأعشى التي تصف هذه الظاهرة⁽⁶⁾:

ل ليلاً فقلت له غادها	أتاني يُؤامِرنِي فِي الشَّمو
ح قِبلِ النُّفوسِ وَحِسادِها	أرْحنا نِباكَرَ جَدِّ الصُّبو
إلى جِوَنَة عِندَ حَدادِها	فَقمنا وَلمَّا يَصِخُ دِيكُنَّا
أزيرِقُ آمِنُ إِكْسادِها	تَنخَلُها مِن بَكَارِ القُطافِ
بأدْماءِ فِي جِبلِ مِقْتادِها	فَقلنا لَه هَذِه هاتِما
وَلِستِ بَعْدُ لِأندادِها	فقال تَزيدونِني تِسعَةً
فلما رَأى حَضْرَ شُهّادِها	فقلت لِمَنصَفنا أَعْطِه
والليلِ غامِرِ جُدّادِها	أضْاءَ مَظَلَّتِه بِالسِراجِ
فلا تُجِبنّا بِتِنقادِها	دِراهِمِنا كَلِها جِيدٌ
تَسكُننا بَعْدَ إِرْعادِها	فقام فَصَبَ لَنا قَهوَةً
مُخَضَّبُ كَفِّ بَفرِصادِها	فجالَ عَلِنا بِإِبريقِه
شِرابِهمُ إِنفادِها	لَقومَ فَكانوا هُمُ المُنْفِدينِ
تَجورُ بنا بَعْدَ إِقصادِها	فَرُحنا تُنعمُنا نِشوَةً

وقد سبق لنا الاستشهاد بشعر الأعشى وهو يتحدث عن الأعراض النفسية للاعتماد على الخمر وما تحدّثه من اكتئاب وحزن وتشاؤم وخبث نفس، ويبدو أنّ الأعشى في شعره هذا يصف بدقة إحدى مراحل

(6) ديوان الأعشى الكبير: مصدر سابق، ص 69، 71.

الاعتماد التي يصاب فيها المسرف في شرب الكحول بالاكتئاب واليأس وربما تنهال عليه الهموم المختلفة بسبب فقدان هيبته وإهماله لعمله وأسرته وتبذيره وإنفاقه التفاخري. كما يوضح العلم الحديث أن هذه الهموم ربما كانت بداية لهذات متخيّلة تسودها الغيرة المرضية والشعور بالاضطهاد فتسيطر على فكر المعتمد وأحاسيسه... "ذكرى هموم ما تغبُّ أذاتها".

وإذا ارتبطت هذه الحالة بمرض الاكتئاب فإنَّ حدّتها تظهر في ساعات الصباح الباكر والضحي بسبب تضافر عوامل القلق الصباحي للإدمان مع اضطراب الاكتئاب الصباحي، وتختفّ هذه الحالة مع إقبال الليل حيث يكون المعتمد قد احتسى من الخمر ما يجعله في حالة سكر ونشوة ويكون الاكتئاب قد خفّت وطأته ليلاً. وقد يفقد المدمن في نشوة سكره اتصاله بالواقع فيبرّر ادعاءاته التفاخرية بالإسراف المدمر لممتلكاته "ومال كثير غدوة نشواتها".

ويقول Kessel⁽⁷⁾ إنَّ كثيراً من مرضاه المدمنين ربما يدخلون إلى الخمار بعد صرف مرتباتهم ليخرجوا منها وقد أنفقوها عن آخرها ليؤكدوا مصداقية قصصهم التفاخرية عن قدراتهم الفائقة ونجاحاتهم "الدون كيشوتية".

نعيد الاستشهاد بشعر الأعشى⁽⁸⁾ لنرى دقة تشابحه بما توصل إليه العلم الحديث لنؤكد أنَّ العرب في جاهليتهم قد عرفوا بعضاً من مضار الاعتماد الكحولي وآثام الخمرور:

(7) N. Kessel and H. Walton, op. cit, P. 100.

(8) ديوان الأعشى الكبير: مصدر سابق، ص 10.

لعمرك إنَّ الرَّاحَ إن كنت سائلاً لمختلفٌ غُدِّيها وعشاقها
لنا من ضُحَاها خُبْتُ نفسٌ وكآبَةٌ وذكرى هموم ما تغبُّ أذاتها
وعند العشي طيبُ نفسٍ ولذَّةٌ ومالٌ كثيرٌ غدوةٌ نشواتها

ولم أر أبلغ في وصف الاعتماد النفسي ثم الإدمان من بيت الأعشى الذي يصف فيه نفسه وقد شرب الخمر في بداية أمره للتلذذ والنشوة ولكنه ما أن أصيب بالاعتماد الجسمي والنفسي حتى أصبح يتناولها ليتداوى بها مما تحدته من آلام نفسية وجسمية. فالعالم الحديث يحدثنا بأن المرء يعتاد الشرب في بداية عهده ليتلذذ بنشوة السكر، لكنه يجد نفسه في حاجة إلى كميات أكبر من الخمر ليصل إلى نفس مستوى النشوة واللذة اللتين كان يجدهما في قليلها. ومع مرور الزمن يصاب بالإدمان والاعتماد العضوي فيشرب بعد ذلك لتجنّب أعراض انخفاض نسبة الكحول في جسمه ويدخل في دائرة الإدمان المفرغة التي يتداوى فيها السكرير بدائه.

فالأعشى يصف الحالة بقوله⁽⁹⁾:

وكأس شربتُ على لذة وأخرى تداويتُ منها بها
لكي يعلمَ الناسُ أنني امرؤٌ أتيتُ المعيشةَ من بابها

ويبدو أن أبا نواس قد اقتبس هذا المعنى من الأعشى حين قال:

دع عنك لومي فإنَّ اللومَ إغراءٌ وداوئي بالتي كانت هي الداءُ

لقد عرف الجاهليون مضار الخمر الجسمية فوصف شاعرهم⁽¹⁰⁾ المعتمد في أطواره الأخيرة في صورة تشمئز منها النفوس، فقد أكثر من

(9) المصدر السابق: ص 173.

الشراب في النهار وفي الليل حتى تورّم جسمه وانتفخ كالمصاب بالاستسقاء وترهّل مترجرجاً كماء الرحم الأصفر الغليظ الذي يخرج عند ولادة الطفل، وهو ما يسميه العرب "السُّخْد" ويقول إن إفراطه في الشراب يضيق نفسهُ فلا يبقى لقلبه مكان!

له شربتان بالنهار وأربعٌ من الليل حتى آضَ سُخْداً مُورّماً
ويشرب حتى يغمّر المخضُ قلبهُ وإن أعطهُ أجعل لقلبي مجنماً

من الواضح أن الشاعر يصف بدقة حالة المدمن بعد أن بدأ التسمم الكحولي يؤثر على كبده بالتليّف وفقد شهيته للطعام البروتيني المفيد واعتمد في غذائه إلى حد كبير على السعرات الحرارية العالية التي يجدها في الكحول، فانتفخ بطنه وازداد حجمه رغم إصابته بسوء التغذية، كما أنّ النقص في بروتينات بلازما الدم ربما يكون قد بدأ في إصابته بالانتفاخ المائي (الأوديم)⁽¹¹⁾. وذلك ما وصفه الشاعر بالسُخْد المورّم. أما إحساسه بضيق التنفس حتى يشعر إنه لم يبق لقلبه مكان، فلعله بداية اعتلال في عضلة قلبه نتيجة الآثار السيئة للتسمم الكحولي لسوء التغذية⁽¹²⁾.

وفي المقابل يجب ألا يغيب عن خاطر الإنسان ذلك كالدور الذي قامت به تلك القلة القليلة من الناس ممن لم يعاقروا الخمر في الجاهلية والذين ما لبثوا أن بينوا مضارها بعد اعتناقهم الإسلام، وعلى رأسهم

(10) ديوان طرفة بن العبد: مصدر سابق، ص 142.

(11) انظر كتاب: "الخمر بين الطب والفقّه"، للدكتور محمد علي البار، الدار السعودية للنشر

والتوزيع، الطبعة الخامسة (بدون تاريخ)، ص 226-230.

(12) المصدر السابق: ص 239-241.

الصحابي الجليل عثمان بن عفان، فقد قيل له: ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ولا حرج عليك؟ قال: إني رأيتها تُذهب العقل جملة، وما رأيت شيئاً يذهب جملة ويعود جملة.⁽¹³⁾

ورفض أعرابي -ممن عاصروا عثمان رضي الله عنه- أن يشربها فقيل له: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي⁽¹⁴⁾.

ولعله من المهم أن نذكر أنّ الأبحاث الحديثة في أثر الكحول على الناحية العقلية تؤكد حدس الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله: "ما رأيت شيئاً يذهب جملة ويعود جملة"، فكثير من الأبحاث التي أجريت على الحيوانات والبشر تؤكد صدق هذا الحدس المؤمن، ومن أمثلة هذه الدراسات ما توصل إليه الباحثان Freund و Walker من أنّ الفئران التي تتناول طعاماً مغدياً يحتوي على الكحول لمدة خمسة أشهر ويقطع عنها الكحول بعد ذلك لمدة ثلاثين يوماً، تحصل على درجات ضعيفة نسبياً في اختبارات التعلّم والذاكرة القريبة إذا قورنت بأخرى لا يحتوي طعامها على الكحول⁽¹⁵⁾. كذلك نجد أنّه بعد إجراء عدد من الأبحاث على بعض الناس، خلص الدكتور "نوبل" إلى النتبجة التي تقول: إنّ شرب الخمر لفترة طويلة ولو بكميات بسيطة قد يصيب الذاكرة والقدرة على التعلّم بضرر مستدم⁽¹⁶⁾.

(13) الزويري، في المرجع المشار إليه سابقاً، مجلد 4، ص 84.

(14) المصدر السابق.

(15) A. Fisher, "Danger: Social Drinking: Recent Experiments Prove that it Can Cost more than you realize", reader's Digest, July 1979

(16) Ibid.

ولنأت الآن للخطوة التي تلت ذلك في سُلْم التحريم، فالجتمع المسلم قد علم الآن أن إثم الخمر ومضارها أكبر من نفعها المحدود، ولا بد أن تكون قد وقعت في هذه المرحلة بعض التصرفات من السكارى عمقت من إثمها ومضارها في وجدان الصحابة الذين أصبحوا بفضل الإيمان والصلاة أكثر حساسية لمثل هذه الأمور. فمن هذه الأحداث ما رواه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، إذ قال إنه أناخ ناقتين له بفناء المنزل الذي كان يشرب فيه الصحابي الجليل حمزة بن عبد المطلب الخمر حلاً مع بعض الأنصار ومعهم قينة غنته وهو سكران:

ألا يا حمز للشرف النواء وهُنَّ مُعَقَّلَاتٌ بالفناء

قال علي: فوثب حمزة إلى سيف فاجتث سنّامي الناقتين وبقر بطنيهما وخواصرهما وأخذ من أكبادهما، فانطلق علي وشكا ذلك للنبي ﷺ. ويروي بعد ذلك أن النبي ﷺ مشى معه إلى حمزة وطفق يلومه، لكن حمزة كان ثملاً محمرة عيناه، فنظر إلى النبي ﷺ وإلى زيد بن حارثة وقال: هل أنتم إلا عبيد لأبي، فعرف النبي ﷺ أنه ثملٌ فنكص على عقبيه القهقري وخرج معه من جاء من الصحابة، وذلك قبل تحريم الخمر⁽¹⁷⁾.

لذلك عندما تهيات الجماعة أتت الخطوة الثانية بشكل تدريجي لتزيد من تضيق الخناق على إباحة الخمر. فجاء الوحي الإلهي ليمنع المؤمنين من أداء الصلاة وهم سكارى:

(17) الحديث رواه الشيخان. والموضوع بأكمله مفصل في الجزء 8 في المغني لابن قدامة، مصدر

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:43].

وكان السبب المباشر لنزول هذه الآية أن أحد المهاجرين كان يصلي المغرب إماماً ببعض الصحابة فخلط في قراءته بسبب سكره⁽¹⁸⁾ لكن لهذه الآية حكماً إلهية بالغة الأهمية شملت النواحي الطبية والنفسية والاقتصادية وحولت المجتمع المدني بأسره إلى المرحلة الأخيرة، فمن ناحية وُضِعَ السكر في مواجهة مباشرة مع الصلاة -أهم العبادات في الإسلام- إذ يقول النبي ﷺ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ»⁽¹⁹⁾. ولذلك ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى أن تارك الصلاة مرتدّ عن دينه⁽²⁰⁾.

ومن ناحية أخرى، كما هو معروف، على المسلم خمسة فروض في اليوم: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، فإذا كان على المسلم أن يؤدي الصلاة في مواعيدها، ولا يقرب الصلاة وهو سكران، كان معنى ذلك أنه لم يعد يسعه أن يشرب الخمر حتى يسكر. وهذا أمر جليّ

(18) الحديث رواه أبو هريرة وأخرجه الإمام أحمد: ابن قدامة، الجزء الثامن، مصدر سابق، ص 313.

(19) انظر "الفتاوي" لابن تيمية، مجلد 28، ص 261، مطبعة الرياض، 1963.

(20) تاركو الصلاة لاعتقادهم بأنها ليست من الأمور الهامة في الدين مرتدّين عن الدين وكفرة بالله في نظر جميع الفقهاء المسلمين، وحتى الذين يتركون الصلاة كسلاً منهم، يعتبرهم بعض الفقهاء مرتدّين على الرغم من إيقانهم بأهمية الصلاة في الإسلام.

واضح لأن الصلاة موزعة على طول اليوم والليل. فنجد أن أطول مدة يستطيع فيها الشخص أن يأخذ من الرشفات أكثر مما تتيحه دواعي السلوك الاجتماعي كانت فترة الليل بين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ورغم ذلك فقد يقرب صلاة الفجر ولما يزاوله أثر الشراب.

وهكذا نجد ثمة تناقضاً جلياً بين هذا الأمر الجديد وما استقر من عادات عربية تتمثل في احتساء الخمر في ساعة متأخرة من الصباح (الصباح) وساعة متأخرة من المساء أو بداية الليل (الغبوق) على ما شرحناه من قبل، ولا سيما الأخيرة حيث اعتاد الناس أن يجتمعوا للشراب، وكان البعض يدخل المسجد لصلاة العشاء وهو سكران ثمل. فبعد نزول الآية، صار منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة، نادى: لا يقربن الصلاة سكران. (21)

ولا بد أن المسلم كان يشعر بالذنب وتأنيب الضمير إذا فاتته صلاة الجماعة مع النبي ﷺ في مسجد المدينة، فرمما يزروه أصدقاؤه المقربون في بيته ظناً منهم أن مرضاً ألم به فأقعده عن حضور الجماعة، وكم كان ذلك يسبب حرجاً كثيراً حين يعتذر عن عدم صلاة الجماعة بأنه كان في حالة سكر منعتة من حضور الصلاة، وقد يفقد الرجل كثيراً من هيئته في بيته وفي مجتمع المدينة بأسره إذا اعتاد التخلف عن صلاة الجماعة. ولا شك أن أولئك الذين يواجهون صعوبة في خفض استهلاكهم للخمر يجدون عوناً في ذلك بالضغط الذي تمارسه الجماعة والتأثير الودي الذي كان للأخوة الإسلامية.

(21) رواه الإمام أحمد. انظر: ابن كثير، نفس المرجع الذي ذكر سابقاً، المجلد 2 ص 636.

وهكذا كان لزاماً على الذين لم يبدأوا من قبل في التقليل من شرب الخمر قبل نزول هذه الآية أن يواجهوا صراعاً عنيفاً من الناحية النفسية و"العضوية" للتخلص من الإدمان، ومن المتوقع أن يكون من بين هؤلاء الذين تأخروا في السيطرة على عاداتهم في الشرب نَفَرٌ غير قليل من المدمنين القهريين **Compulsive alcoholics** الذين تمكنت منهم الخمر، والندماء الذين تعودوا مجالس الخمر، وكذا بعض العصائين وأولئك الذين اعتمدوا عضوياً على الكحول بالدرجة التي يسبب إيقاف تناوله بشكل مفاجئ أعراضاً تعرّص حياتهم للخطر.

لذلك، ومن الناحية الطبية البحتة، خَطَّتْ هذه المرحلة -أعني الكف الجماعي التبادلي- خطوة هامة نحو الامتناع الكامل عن تعاطي الخمر. وكان لا بد لهؤلاء الناس من وقت كافٍ كي يتغلبوا على آثار أعراض الانقطاع **Withdrawal symptoms** إذ لم يكن من اليسور إعطاء أي دواء لوقف أو تخفيف الآلام الناتجة عن هذا الامتناع، ولم يبقَ سوى السبيل الطبي والمنطقي الوحيد وهو السماح للمدمن وللمعتمد على الكحول بأن يحتسي كميات متناقصة حتى تزول الأعراض. ولا شك أن المجتمع المسلم كان قد تمياً طبياً وعضوياً لمرحلة التحريم النهائي، بدليل أننا لا نجد في تاريخ هذه الفترة -التي حرص فيها المسلمون على تسجيل كل شاردة وواردة- أحداثاً عن أشخاص أصيبوا باضطرابات جسمية عنيفة أو ماتوا بسبب امتناعهم الكامل عن شرب الخمر.

ويجدر بنا أن ننوه إلى أن أسلوب السحب التدريجي للمادة المخدرة من الجسم ما زال من بين الوسائل التي يستخدمها الطب النفسي حتى في

عصرنا الحديث، مثلاً في علاج الإدمان على بعض المخدرات كالباربيتورات Barbiturates⁽²²⁾.

أما بعد اكتشاف العقاقير والمهدئات الحديثة وإمكانية تركيبها في المختبرات فقد أصبحت الغالبية العظمى من المدمنين يُمنعون من تعاطي الكحول بشكل تام ويتناولون هذه العقاقير كعقار Chlordizepoxide الذي يمنع أو يخفف أعراض الانقطاع. ولعله من المفيد أن نذكر بهذه المناسبة أن بعض الأطباء والمعالجين النفسيين المُحدثين يعتقدون بأن السهولة التي تيسرها العقاقير التي يتناولها المدمنون لتجنب أعراض الانقطاع كالصداع الشديد والاضطرابات المعوية والتشنجات ربما تكون هي المسؤولة عن النسب العالية في الانتكاسات بين هؤلاء المدمنين، أي إن المريض في المستشفى الذي يمنع من شرب المواد الكحولية ويعطى جرعات كبيرة من العقاقير المهدئة، يمر بفترة الانقطاع وهو في حالة تخدير مريح بالنسبة لذلك المدمن على الخمر الذي يمنع عن الشرب ولا يتناول مثل هذه العقاقير. وبسبب هذه السهولة نجد الغالبية العظمى منهم تعاود الشرب حالما تخرج من المستشفى، بينما نجد المريض الذي قاسى آلام الانقطاع المبرحة أو حتى بعضها، نجد بالمقارنة أكثر تردداً في العودة للشرب والإدمان لارتباط الخمر بتلك الآلام الشديدة.

ولعل هذه الظاهرة -أي أهمية تحمل المريض لبعض أعراض الانقطاع- هي التي جعلت أسلوب جماعة "أمة الإسلام" Nation of Islam في

(22) J. Colman, Abnormal Psychology and modern life, Scott, Foreman Co., 1976

أمريكا أنجح برامج علاج المدمنين، خاصة بين الأمريكيين السود⁽²³⁾. ذلك بأنهم لا يعطون المريض المدمن أي عقار لتخفيف أعراض الانقطاع، فيذكر "مالكولم إكس Malcolm X" في كتابه المشهور عن سيرته الذاتية أنهم بعد إقناع المدمن بترك المخدرات أو الكحول، وبعد تصميمه على المضي قدماً بتغيير حياته من رمضاء الكفر والتشرد إلى واحة الإسلام، فإنهم لا يقدمون له ما يخفف عنه آلام الانقطاع سوى التشجيع وتقوية الإرادة التي يجدها من إخوانه المسلمين الذين لا يفارقونه ساعة من ليل أو نهار حتى تختفي تلك الآلام المبرحة، فيقول مالكولم إكس ما تلخيصه..: "عندما تبدأ آلام الانقطاع بسبب إيقاف تناول المخدر أو الكحول فإنّ المدمن يصرخ بأعلى صوته ويسبّ ويستجدي إخوانه جرعة أو رشفة واحدة فلا يجد منه إلا التعاطف الحميم والتشجيع الصادق.. تتابه آلام لا تطاق، تسيل أنفه وتنسكب الدموع من عينيه المحمرتين ويجري جسده عرقاً من منبت شعر رأسه حتى أخص قدميه، يحاول ضرب الحائط برأسه.. يتشاجر مع إخوانه، يستفرغ بعنف ويصاب بالإسهال الشديد ويتفجر رأسه ألماً بالصداع.. تستمر هذه الحالة حتى يتطهر جسمه من سموم المخدر أو الكحول، وعند ذلك تقدم له "الشوربة" المغذية وسائر الأطعمة التي تساعد على الوقوف على رجليه مرة أخرى"⁽²⁴⁾.

(23) New York Times, as quoted by Malcolm X, Autobiography of Malcolm X, Grove Press, 1966, P. 259.

(24) Malcolm X, Ibid.

وبفضل هذا الأسلوب، وبفضل الإسلام أولاً الذي كرر معجزة قهر الإدمان والاعتماد على الخمر والمخدرات في أمريكا القرن العشرين كما سنيين فيما بعد، فإن نسبة من يتكسون من هؤلاء هي من الندرة بمكان، بل إن كثيراً ممن كانوا من المدمنين قد أصبحوا بعد ذلك من أنشط أعضاء جماعة "أمة الإسلام" في مساعدة المدمنين الآخرين على الإقلاع الكامل.

والآن لنرجع إلى مدينة رسول الله ﷺ، حيث نجد أن نزول الآية: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ قد حثت الكثيرين من ذوي البصائر والألباب وقوة الإرادة على الامتناع الكامل، في حين استمر البعض الآخر في التوقف التدريجي أو خفض استهلاكهم اليومي للكحول، ولا بد أن هؤلاء وأولئك قد أصيبوا بأعراض الانقطاع بدرجات متفاوتة، ولا يستبعد أن قلة نادرة من عتاة المدمنين والمعتمدين على الكحول قد ابتلوا بالأعراض العنيفة التي تتعدى الصداع والاضطرابات المعوية إلى الرجفة الشديدة والتشنجات والهذيان وربما نوبات الصرع الكحولي.. وكان من شأن ذلك أن يساعد على إبراز مظاهر جديدة لما في تعاطي الخمر من شرٍّ وإثم وهو ما أورده القرآن الكريم بصورة عامة في مراحل التحريم الأولى.

ولا شك أن هؤلاء المرضى قد أعطيت لهم كميات كبيرة من عسل النحل الطازج الذي كان النبي ﷺ يوصي به دواء لكثير من الأدوية والأمراض. ففي القرآن الكريم سورة لهذا الاسم هي "سورة النحل" التي يقول الله تبارك وتعالى فيها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ

فَاسْئَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 68-69].

ولا بد أن قدرة النحل على الشفاء قد ظهرت أكثر ما ظهرت في مساعدة من توقفوا عن شرب الخمر بين غيرهم من المرضى، فعسل النحل كما نعلم اليوم غني جداً بالثيامين وأنواع فيتامين ب المركب الأخرى، وكذلك بالفروكتوز.

ونرى أن الطب الحديث قد أعاد إلى الأذهان فائدة عسل النحل في علاج الإدمان بعد سلسلة من الدراسات المخبرية، فيذكره الدكتور الدقر⁽²⁵⁾ في دراسته القيمة عن عسل النحل أن قيمته الكبيرة في علاج المدمنين على شرب الخمر، تتكشف اليوم من جديد، ويستشهد على ذلك بمقالات من المجلة الطبية البريطانية ومجلات النحل الأمريكية والبريطانية، ويستدل كذلك بطائفة أخرى من المراجع الفرنسية والإيطالية والألمانية الحديثة التي تؤكد أن عسل النحل قد حقق نجاحاً باهراً في مساعدة المدمنين المزمنين في استعادة ما ينقصهم من فيتامينات، وتسهيل عملية تطهير أجسامهم من السموم الكحولية وسموم المخدرات. ومن أجل ذلك نجد الدكتور لارسين⁽²⁶⁾ يوصي باستعمال جرعات متكررة (125 جراماً من عسل النحل) لهذا الغرض.

هذه هي إذاً بعض الأدلة على فائدة عسل النحل في علاج الإدمان، ولا بد أن يكون قد استخدمه من كان يشتكي من أعراض الانسحاب

(25) الدكتور الدقر: "العسل"، دمشق: دار الكتب العربية، 1974، ص 111-114.

(26) M. Larsen, British Medical Journal, August 1954, as quoted by Digir, Ibid.

الشديدة، أما بالنسبة للأكثرية الساحقة من سائر المسلمين الذين كانوا قد اعتادوا الإفراط في الشراب، فلا شك في ظهور أعراض خفيفة عليهم، كتلك التي تصاحب في العادة الخفض المفاجئ من كمية الخمر التي اعتاد المرء تعاطيها وما ينجم عنه من انخفاض في تركيز الكحول بالدم، غير أن كثيراً منهم قد سلك الطريق حتى نهايته، فامتنع عن الخمر أو قصرَ شراهما في نطاق الاجتماعيات فحسب. ويعزى ذلك إلى الأثر المشجع الذي لا ريب أنهم لاحظوه في أنفسهم بعد الإقلاع من تحسّن عام في الصحة البدنية والعقلية كالتخلّص من الاضطرابات المعوية وفقدان الشهية للطعام، والشعور بالذنب، والانتقباض الذي كانت تتركه الخمر مطبوعاً في النفس. كما وأن أعراض الانقطاع الخفيفة هذه والتي لا بد أن يشعر بها كلّ من كان يشرب الخمر في المدينة المنورة وتركها أو خفض من شربها، كانت بمثابة الارتباط "الشرطي" والعلاج العقابي الذي يقوّي العزيمة على الامتناع وعدم الانتكاس.

وكان لهذه الخطوة من التحريم التدريجي آثارها الاقتصادية كذلك فلا شك أن كثيراً ممن كانت الخمر مصدر رزقهم الأول، شعروا بضرورة البحث عن سلع أخرى يتاعونها، ولقد تناقص استهلاك الخمر وبيعها منذ نزول الآية التي قررت أن إثم الخمر أكبر من نفعها، وازداد هذا الامتناع بالطبع بعد نزول آية منع السكرى من الصلاة، ولنا أن نتصوّر كذلك أن أهل التقى والورع ورهافة الحسّ من المسلمين الذين كانوا يتجرّون بالخمر قد تركوها زهداً إلى ما سواها من أنواع التجارة الأخرى طمعاً في مثوبة الله تعالى.

ومهما يكن من أمر، فإننا نجد أن نزول الآية الكريمة بعدم مقاربة الصلاة عند السكر قد كان إنذاراً واضحاً حتى للتجار من النصارى واليهود بقرب التحريم الكامل للخمر.

إذن فقد كان لهذا التدرّج في خفض استهلاك الخمر في المدينة أهميته الاقتصادية الكبيرة، إذ لو تمّ التحريم بشكل مفاجئ لحدثت هزة اقتصادية ولتأثرت تجارة كثير ممن كانوا يعتمدون اقتصادياً على الخمر وعلى الفواكه والمواد التي تستخرج منها.

دلّ انخفاض استهلاك الخمر بوضوح على جدوى هذه الخطوة وتهيأت المدينة المنورة بأسرها للمرحلة الأخيرة على درجات السلم التصاعدي للامتناع الجماعي عن تعاطي الخمر، فنجد أن أكثر المدمنين والمُسرفين في الشراب قد شفوا من أعراض امتناعهم واكتسبوا عادة جديدة أكثر اعتدالاً تتمثل في "الشراب الاجتماعي" كما ألقع الكثيرون منهم تماماً عن شرب الخمر، أمّا القلّة منهم التي كانت تكثّر من معاقرة الخمر بين آونة وأخرى، فقد أضحت أقلية ضئيلة تتباهم مشاعر العار والإثم حين تفوتهم الصلاة بالمسجد وهم سكارى. وعلى الرغم من ذلك نجد أن تلك القلّة القليلة بدأت تتأهل نفسياً للإذعان للأمر النهائي لتحريم الخمر إذ فيه القضاء على الصراع والتردد الذي عايشوه أمداً، وفيه النهاية الأبدية لآثام المسكرات.

وهكذا جاءت المرحلة الأخيرة من مراحل التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿المائدة:90-91﴾.

وبذلك جاء الردّ السريع المشهود: "انتهينا ربنا... انتهينا ربنا..!!" بعد ما يزيد عن الثلاثة أعوام من الانصياع التدريجي الذي كان عموده الإيمان ووسائله التكاتف الخلقي والروحي للجماعة المسلمة. فكلما وصل تأثير خطة المنع إلى المستوى المناسب من كل مرحلة انتقلت بالجماعة المؤمنة للمرحلة التي تليها حتى تحققت معجزة الامتناع الجماعي عن تعاطي الخمر. وبذلك كانت كلّ مرحلة من تلك المراحل المتدرجة والتي ينزل بها الوحي إلى الأمة بمثابة درجات السلم النفسي الذي يصعد عليه الفرد وهو يتلقى علاجاً سلوكياً ومعرفياً يخلصه من عاداته المرضية الضارة.

وإننا لنجد، وتبعاً للفروق الفردية، أن بادر بعض المسلمين إلى الامتناع عن الخمر منذ بداية مراحلها، في حين أجل البعض الآخر امتناعه عنها حتى كان التحريم النهائي. ولكنهم كانوا جميعاً مهيين في نهاية الأمر للامتثال لذلك التحريم النهائي عن رضى واقتناع كاملين.

ب- الدافع الحقيقي الجوهري للإقلاع عن شرب الخمر

هل هي السنوات الثلاث فحسب من التحريم التدريجي تلك التي أدت إلى هذا التغيير الكبير بين المسلمين؟! وهل بإمكان المعالجة التدريجية في حدّ ذاتها أن تؤدي إلى هذا التحوّل؟!

لقد ذكرنا من قبل، أنه لكي يحدث الانضباط والتغيير الاجتماعيان تعين وجود دافع إيجابي قوي لهذا التغيير في الناس أنفسهم، ويتعين على أقل تقدير تحييد مقاومتهم للتغيير ببعض الاستجابات المضادة (الكف الحضاري المتبادل).

يقول علماء الاجتماع إن استجابة الناس لمعايير أو أنظمة اجتماعية جديدة، إنما يأتي بسبب اقتناعهم بصلاحية تلك المعايير ومبادئها، وعدم صلاحية المبادئ التي كانت تستند عليها معاييرهم القديمة. ويعرف ذلك بمفهوم "الإقناع" Persuasion⁽²⁷⁾ أما النوع الآخر من أنواع الضبط الاجتماعي والمعروف "بالتأثير الخفي"⁽²⁸⁾ Incentive manipulation فهو يشير إلى وسائل الانصياع التي يُستخدم فيها الثواب والعقاب بهدف إحداث التغيير المطلوب من خلال التدعيم الإيجابي أو السلبي.

ولقد جاء الدافع الحقيقي والأساسي لنجاح تحريم الخمر في الإسلام ديناً ومنهج حياة. ففي حين اشتملت الآيات القرآنية التي تناولت بشكل مباشر مشكلة شرب الخمر على عناصر من "الإقناع" و"التأثير الخفي"، فمن ناحية أخرى بدأ الدافع الحقيقي لهذه الحملة فعلاً قبل ذلك بعدة سنوات؛ إذ إن تحريم الخمر لم يستغرق ثلاث سنوات فحسب كما يؤكد بعض العلماء المحدثين ولكنه بدأ حقيقة قبل ذلك بثلاث عشرة سنة عندما بدأت أشعة شمس الإسلام المباركة في نشر أشعتها لتضيئ سهول مكة وجبالها المظلمة.

(27) L. Malpus, ed., Social Behavior, Mc Graw Hill Book Co. 1967.

(28) Ibid.

بدأ الإسلام بتصحيح العقائد والقيم الزائفة المتأصلة في نفوس العرب ولم يبدأ بمهاجمة شرب المسكرات وغيره من العادات والتقاليد العربية المذمومة التي كانت سائدة قبل الإسلام فلقد كانت الوثنية والقبلية والقيم التي قامت عليهما هما السند النفسي الحقيقي لهذه "الجاهلية" فهما يمثلان المرض الفعلي الذي كان لعب الميسر والزنا وشرب الخمر مجرد أعراض له بل كانت مجرد ثمار لشجرة الجاهلية الخبيثة.

وهذا هو السبب في أن دعوة الإسلام ركزت طوال السنوات الثلاث عشرة الأولى على بناء العقيدة الجديدة والإيمان بالله الواحد الأحد، واليوم الآخر والجنة والنار، والملائكة، والأنبياء والكتب المقدسة، كما نزل بهذا القرآن الكريم على رسول الله ﷺ.

ولم يكن ذلك بالشيء السهل، فعندما كان يعتنق الجاهلي الدين الجديد يصبح بين عشية وضحاها شخصاً آخر. لقد كانت العقيدة الجديدة تحول بينه وبين السجود لآهته التي نحتتها قبيلته من الحجر والتي كانت- في عقيدته- تقف إلى جانبه ضد القبائل العربية الأخرى، والتي كانت تبرر له جميع أعماله غير الأخلاقية مثل السرقة والاعتداء على الآخرين وواد البنات ولعب الميسر وشرب الخمر والزنا، أما الآن فإنه يصغير إلى القرآن الكريم الذي يعرفه بمخالقه الحق: الله العليم القدير جلّ جلاله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:16]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59].

إنه غير ذلك الإله الميت الذي عرفه من قبل، وهو جلّ جلاله لا يختص بالعرب وحدهم ولكنه رب العالمي، إله السماوات والأرض إله جميع المخلوقات ما علمناه منها وما لم نعلمه، ولم تعد هناك روح الأنانية القبلية الضيقة بل هو الله الرحمن الرحيم وهو ربّ الناس أجمعين. لقد أصبح ميزان التفاضل الوحيد بين الناس هو الإيمان بالله والأعمال الصالحة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13].

وقد جاءت أحاديث النبي ﷺ تعكس نور هذه الآية القرآنية وتبين بوضوح أن الناس سواسية كأسنان المشط وأنه «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

ولك أن تقارن هذا الموقف الجديد المتسم بالروح الإنسانية الشاملة مع تلك القبلية الضيقة التي كانت سائدة بالجزيرة العربية قبل الإسلام بتطرفها وتعصبها مما عبر عنه الشاعر بقوله:

ونشرب إن ورَدْنَا الماء صَفْوًا ويشرب غيرنا كَدْرًا وطِينًا
إذا بلغ الوليد لنا فطامًا تحر له الجبابر ساجدينًا

لقد كان البون شاسعاً بين الموقفين واستطاع المسلمون بتوفيق الله أن يتخطوا هذه الفجوة، وكانوا يتعرضون في سبيل ذلك لمعاناة جسمانية ونفسية قاسية ذاقوها على أيدي أشرف مكة، ولقد أصبح صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، وهم من بين أولئك المبشرين قادة أمجاداً من رواد الدولة الجديدة في المدينة بينما هم من غير العرب.

لقد ظلّ القرآن فترة الثلاثة عشر عاماً الأولى له في مكة المكرمة يؤكد الحقائق المتعلقة بالآخرة والبعث حتى أصبح الخوف من عذاب جهنم والرغبة في النعيم المقيم في الجنة حقائق مماثلة في أذهان المسلمين.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: 1-5].

وبعد أن هجر العرب المسلمون روح الوثنية والقبلية، فقدت شجرة الجاهلية جذورها وأصبحت العادات الاجتماعية المتمثلة في شرب الخمر ولعب الميسر والزنا فرعاً في شجرة توشك على الهلاك، أو بالأحرى كأعراض الاضطراب النفسي العصابي التي تظل تحتفظ بشكل من أشكال الاستمرارية الوظيفية بعد فترة طويلة من التغلب على الصراعات والعقد الداخلية، حتى يصبح القضاء على هذه الأعراض بالعلاج السلوكي سهلاً ميسوراً دون الخوف من ظهور أعراض مرضية أخرى في المستقبل. وهكذا يسرّ تتغلغل الإيمان في النفوس معالجة الإسلام خلال تلك السنوات الطويلة لكثير من القضايا الخطيرة التي كانت سبباً في عدم استقرار الأسرة العربية ومن ثم في إدمان الخمر، إذ لم يقف الإسلام عند تحريم وأد البنات فحسب، بل كان القرآن يوجّه تقريباً شديداً للعرب لخلجهم من إنجاب البنات، وقد عرضت بعض الآيات القرآنية بصورة حية هذا العمل الإجرامي في سياق عرضها لأحوال يوم القيامة:

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 5-9].
وفي سورة أخرى يقول عزّ من قائل:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58-59].

وقد تم كذلك القضاء على كثير من المساوي ذات الصلة بالنساء وبكيان الأسرة ووظائفها فأصبح من حق النساء -على سبيل المثال- أن يرثن الوالدين والأقربين: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7].

جاء هذا المبدأ العام للإرث ليعطي للنساء حقهن وليحفظ للصغار ما لهم من حقوق كانت تأكلها الجاهلية، أو تأكلهم بالوآد والقتل، فكانت الجاهلية تقدر الفرد من ناحية إنتاجه في الحرب والكسب، حتى ولو كان ذلك على حساب استقرار الأسرة وسعادتها، فجاء هذا المنهج الإسلامي الرباني ليعيد للإنسان كرامته وقيمه كإنسان أولاً ثم بعد ذلك ينظر في واجباته وحقوقه في بيئته الأسرية التي أعيد تكوينها على هذا النسق الإنساني لتتنزل الرحمة والود والإنسانية في الجماعة وتتلاشى الضغوط النفسية التي كان يشيعها الظلم والقسوة والتفكك الأسري.

كما أبطل الإسلام تزويج النساء بالإكراه وأصبح من حق المرأة أن تستأذن وتختار من تشاء زوجاً لها، فقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ قوله: «الأيّم أحق بنفسها من وليها والبكر تُستأذن في نفسها وإذنها صممتها»⁽²⁹⁾.

(29) الحديث رفعه ابن عباس: انظر "مجمع الفوائد": مصدر سابق، الجزء الأول، ص 612.

كذلك أبطل الإسلام تلك العادة الذميمة التي كان يرث فيها الابن زوجات أبيه بعد موته: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:22].

وباختصار فبالنسبة لعلماء النفس الذين ينظرون إلى الأسرة على أنها المصدر الرئيسي لظهور مدمني الخمر في المستقبل، تبرز الأهمية الكبيرة لما فعله الإسلام في هذا الصدد وهو أمر على علماء النفس المسلمين أن يدرسوه بدقة ويوضحوه للناس.

وشعر أبناء المسلمين في المدينة بقسط وافر من الحب والتسامح، فالنبي ﷺ، الأسوة الحسنة للمسلمين يوم المؤمنين في الصلاة وهو يحمل أحياناً بعض حفدته الصغار وكان حفيده الأكبر يركب فوق ظهره الشريف أثناء السجود في صلاة الجماعة، وكان النبي ﷺ يستمر ساجداً حتى ينزل حفيده من تلقاء نفسه مما كان يجعل المصلين من خلفه يعجبون لطول الوقت الذي استغرقه ﷺ في السجود⁽³⁰⁾.

ومن ثم فإن الإحساس الجديد بالإسلام والأمن داخل الأسرة المسلمة والإحساس بالعزة والكرامة لدى النساء قد أشاع جواً من الرحمة والسكينة مما ساعد على تخفيف حدة مشكلات الذين أقلعوا عن شرب الخمر. كما أن الأطفال الذين تربوا في هذه البيوت كانوا أقل عرضة للإصابة بالقلق العاطفي الذي كانوا يعرضونه بعد البلوغ بالتفاخر القبلي الزائف أيام الجاهلية.

(30) انظر: مجمع الفوائد: مصدر سابق، الجزء الأول، ص 240.

وأرى من الأهمية بمكان أن استشهد في هذا الموضوع بما أوضحتها السيدة عائشة -رضي الله عنها- بعد وفاة النبي ﷺ، فهو يوضح في كلمات قليلة أهمية غرس الإيمان في النفوس قبل الشروع في تغيير عاداتهم. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "إنما نزل -أي القرآن- أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ناب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر" لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل "لا تنزوا" لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ﴾ [القمر:46]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده⁽³¹⁾.

(31) من حديث عن السيدة عائشة كما أورده البخاري انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، القاهرة: الطبعة السلفية، المجلد 9، ص 38-39، والحديث برقم (4993).